

تراشٲابن شرق و غرب

– معابر الانتقال

– بين أيدى المشرقين

obeikandi.com

على المعابر التاريخية المشهورة التي انتقلت عليها الحضارة من شرقنا الإسلامي إلى الغرب ،

انتقل تراثنا مع ثمار حضارتنا ، عبر الدردنيل والبحر الأسود وقزوين ، وصقلية وإسبانيا ، فأخذ دوره هناك في حركة الإحياء (الرينسانس) التي بدأ بها تاريخ النهضة الحديثة في أوروبا .

كان اتصال الغرب بالشرق قد بدأ من زمن بعيد في علاقات سلمية ، سياسية وتجارية ، أو في صراع حربي . فأنهروا الأوربيون بما شهدوا هنا من معالم الحضارة الإسلامية ، وحاولوا أن ينقلوا منها ما وسعته طاقة الغرب في عصوره الوسطى .

ثم لما ازدادت حركة الانتقال على المعابر الكبرى ، وجد الغرب في ذخائر تراثنا ما يمكنه من وضع أسس وطيدة هيأته لدوره القيادي بعد أن غربت الشمس عن شرقنا .

ويقترن فجر الإحياء في أوروبا ، الرينسانس ، بذلك العبور التاريخي لتراثنا . ويشهد مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال ولز ولوبون ودي بور ، وأوليري وتويني وكراشكوفسكي بأن الفكر الإسلامي هو الذي قدم إلى الغرب شعاع النور الذي أضاء مسراه إلى عصر نهضته الحديثة .

وما يسجله تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، أن الأمير فريدريك أسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤ م وجعلها مدرسة لنقل العلم العربي إلى العالم الغربي ، وأن جامعتي بولونيا وبادوفا قامتا على الثقافة العربية ، وبخاصة فلسفة ابن رشد وطب ابن سينا .

وفي مراسيم لويس الحادى عشر سنة ١٤٧٣ م ، أن على المعلمين في باريس أن يدرسوا لطلاب الجامعة كتب أرسطو ، في شروح ابن رشد وتوماس الأكويني وألبرت الكبير . وفي صقلية اعتمدت جامعة باليرمو - أقدم جامعة غربية - على الثقافة العربية التي حرص الأمير ريجار « روجيرو » على استعارتها منا ، واستقدم

لها الأعلام من علماء العرب وكان منهم « الإدريسي » الذي ألف لأمير صقلية كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وصنع كرة أرضية من الفضة ، كتبت عليها بالذهب أسماء الأقاليم والمدن الكبرى .

ولدى قرون ، ظل الطب العربي أساس الدراسة الطبية في جامعات أوروبا ، وكان قانون ابن سينا - الذي ترجمه جيرار الكيمونى إلى اللاتينية - ممثلاً للمدرسة العربية في الطب ، وبقى محتفظاً بمكانته في جامعتي مونبلييه ولوفان حتى أخريات القرن السابع عشر . كما ترجم كتاب الكليات لابن رشد إلى اللاتينية باسم « كوليجه » وصار المثل الشهير الذي كان يدرس في جامعات أوروبا التي تأخذ عن المدرسة العربية في الطب . كما دخلت قوانين ابن سينا الأربعة الأولى ، من عام ١٣٤٠ م في المنهج الرسمي المقرر على المرشحين للدرجات العلمية في الطب .

ولو مضيت أتتبع مكان تراثنا في النهضة الأوروبية بعد أن وصل إليها على معابر الانتقال ، لاستنفدت الوقت والجهد دون أن أبلغ من الموضوع مبلغاً ذا بال . فبحسبي إذن أن أشير عليكم بالرجوع إلى ما يحضرنى الآن ذكره من كتب غربية حديثة ، رصدت آثار تراثنا بعد عبوره ، منها مثلاً :

- كتاب كراتشكوفسكى في « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » وفيه دليل لتراثنا هناك ، فى الجغرافيا والفلك والرياضيات ، وقد نشرت جامعة الدول العربية ترجمته الكاملة ، للدكتور صلاح الدين هاشم .

- كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون « ، وفيه عرض واف لما أخذ الغرب عنا فى مختلف جوانب الحضارة ، ترجمه الأستاذ عادل زعيمير .

- كتاب « شمس الله على الغرب » (فضل العرب على أوروبا) للمستشرقة الألمانية « سيجريد هونكه » ويتابع أثر العلوم الطبيعية والطب والرياضيات العربية فى الغرب . ترجمه الدكتور محمد فؤاد حسنين .

- الإسلام والكوميديا الإلهية : لميجويل آسين بلاسيوس . طبعت ترجمته

الإنجليزية في لندن ١٩١٩ . وفي مقدمته بيان لما انتقل إلى أوربا على
معبر إسبانيا من تراث الإسلام الفكري والروحي والأدبي ، ثم يعرض
بتفصيل للمنايع الإسلامية ، ومنها المعراج ورسالة الغفران ، لكوميديا
دانتي ، أجمد وأشهر نص أدبي أوربي في فجر النهضة الحديثة .

تراثنا بين أيدي المستشرقين :

وتمت حركة الإحياء ، وتم معها التحول التاريخي الحاسم للحضارة من الشرق إلى الغرب .

وكان الظن أن يفتر اهتمام الغرب بتراثنا ، وقد وصل إليه أكثره على معابر الانتقال الكبرى .

لكن الغرب ازداد حرصاً على اقتناء ما بقى للشرق من تراثه ، ليؤدى دوراً جديداً في حركة الاستعمار .

وقد نقلنا آنفاً ، حديث الأستاذ « كرد علي » في خطط الشام ، عن دول أوروبا – ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولاندة وروسيا – التي أخذت منذ القرن السابع عشر ، تجمع مخطوطات تراثنا بوساطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكذلك انتشرت رسلهم وعملاؤهم في أنحاء المشرق ، بحثاً عن هذه المخطوطات . ولا تنتظروا مني أن أحصى ما جمعوا من ذخائر تراثنا فالأمر فيه يفوت العد والإحصاء . يكفي أن ترجعوا إلى كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) مثلاً ، لتقرأوا ما أحصى من مخطوطات الأدب العربي في دور الكتب الأوربية . وأذكر – على سبيل المثال كذلك – أن فهارس المخطوطات العربية في مكتبة برلين وحدها ، كانت تملأ – إلى عام ١٩٣٠ – عشرة مجلدات ضخمة ، وأن أحد طلاب « جامعة برنستون » القدامى أهدى إلى جامعته مكتبة فيها ستة آلاف مخطوط عربي كانت في حوزة واحدٍ فحسب ، من مستشرق الإنجليز .

واستطاعت روسيا ، منذ إنشاء المتحف الآسيوي في بطرسبورج – لينينجراد – سنة ١٨١٨ م أن تدخل في السباق الدولي على مخطوطات تراثنا ، فتظفر بمئات الألوف من ذخائره . وقد بلغ رصيد معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي ، اثني عشر ألف مخطوط حتى سنة ١٩٦٣ ، بينها

خمسة آلاف مخطوط عربي ، إلى جانب سبعة آلاف مخطوط عربي في مكتبات أخرى ببلينينجراد .

وبلغ رصيد معهد الاستشراق في طشقند عاصمة أوزباكستان ، ثمانين ألف مخطوط باللغة العربية واللغات الشرقية .

وهناك مجموعات أخرى في قازان ، وباكو ، وتبيليسي ، وخاركيف ، لا أحصى رصيدها عدداً . .

وهذا يعطيكم فكرة عن مقدار ما جمعوا من مخطوطات ملئوا بها خزائن الكتب العربية في الفاتيكان بروما ، والأمبروزيانا بميلانو ، وباليرمو بصقلية ، والناسيونال بباريس ، وفيينا وهاله وبرلين والأسكوريال ، وليدن بهولاندة ، والمتحف البريطاني بلندن ، وموسكو وبلينينجراد وطشقند بالاتحاد السوفيتي ، عدا مئات المكتبات الخاصة بعلماء الاستشراق وهواة جمع المخطوطات .

وفي القسم الأخير من هذه المحاضرات ، تقرأون قصة مثيرة لرحلة تراثنا من مخطوطات البردي إلى أوروبا ، وتنافس دول الغرب على اقتنائها ، دون أن يعيننا سباقهم على الكنز من قريب أو بعيد .

وتقرأون معها ، فصلاً من قصص أخرى ، تروى ما كان من حرص الأوربيين على جمع تراثنا . وما بذلوا ويبدلون في سبيله من جهد ومال .

* * *

ووضع هذا التراث بين أيدي المستشرقين الذين عكفوا عليه في شبه رهبة ، يفحصون نصوصه ويحققونها ، وينشرونها على أحدث منهج للتحقيق والضبط والنشر .

ثم انتقلوا بعد أن جدوا في جميع التراث وفهرسته وتحقيقه ونشره ، إلى المرحلة الهامة التي من أجلها كان الجهد السخي المبذول : فأقبلوا على درس هذا التراث وقد توزعوه فيما بينهم ، فتفرغ نفر منهم لدرس تاريخنا السياسي ، وآخرون للمذاهب الدينية والفقه والشريعة والحديث ، وفريق ثالث اختص بدراسة اللغة واللهجات والأدب ، وكتيبة رابعة وخامسة . شغلت بالنظر في كتب العلوم . . . وكأنما كانت

تحركهم قوة منظمة لا تدع مجالاً بجانب من جوانب حياتنا إلا عينت له من يختص به ، ولا تسمح بفرغ في ميدان دراسة التراث ، دون أن تجد له من يملؤه . وبلغوا في دراستهم الجادة للشرق والعربية والإسلام ، من التخصص والاستيعاب حدًّا مذهلاً ؛ أقول هذا وأنا من أزهدي الناس في مثل هذه الألفاظ الضخمة ، لكنني لا أجد هنا سواها ما يصف صنيع هؤلاء الأجانب الغرباء! وما أراكم إلا ملتصين لي العذر ، حين أذكر لكم مثلاً أن المستشرق الإيطالي « كايثاني » المتخصص في دراسة تاريخ الإسلام ، جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل لتتاد مناطق الفتح الإسلامي وترسمها جغرافياً وطبوغرافياً . وجمع كل الدوريات والمرويات عن حركة الفتح ، في العربية والسريانية واللاتينية ، وقابلها واستخلص منها تاريخ الفتح في تسعة مجلدات بعنوان "حوليات الإسلام : Amnali del Islam" بلغ بها سنة أربعين هجرية . وكان حين الطبع ، يبعث بتجارب المطبعة إلى المتخصصين في الموضوع لإبداء ملاحظاتهم عليها . ثم طبع الحوليات طبعة فاخرة وزعها على الدوائر العلمية . وكلفته هذه العملية كل ثروته الطائلة فأفلس .

ولإيكم مثلاً آخر من تخصص القوم وجدهم ، وليكن هذه المرة من المجال التاريخي الأدبي ، فأذكر المستشرق الألماني « كارل بروكلمان » الذي دخل الميدان عام ١٨٩٠ بكتابه عن "العلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ، وكتاب تاريخ الطبري" وكان موضوع رسالته للدكتوراه ، بجامعة ستراسبورج . وفي عام ١٨٩١ أخرجت له مطبعة ليدن "ديوان لبيد" مترجماً عن طبعة فيينا ومزوداً بجواش وشروح . ثم مضى يتابع بحوثه ودراساته في تراثنا الأدبي ، وينشر الكتاب بعد الكتاب من ذخائره ، حتى بلغت مؤلفاته ومنشوراته نحو مائة وعشرين ، فيما بين سنتي (١٨٩٠ : ١٩٥٤) لم تكد سنة منها تمر دون أن يضيف إلى مكتبته الاستشراق أثراً جديداً . وإلى جانب هذه النصوص المحققة من تراثنا ومؤلفاته فيها : كتب في دائرة المعارف الإسلامية مائة وثمانين وعشرين مادة .

وفي مجال الفقه والشريعة ، أقدم المستشرق الألماني « يوسف شاخت » الذي درستُ عليه فقه اللغة في كلية الآداب بجامعة القاهرة :

— في سنة ١٩٢٣ أخرجت له مطبعة هانوفر تحقيقه لكتاب (الحيل والمخارج للخصاف) بمقدمة وتعليق .

— في سنة ١٩٢٤ ، نشرت له مطبعة لبيتسج (كتاب الحيل في الفقه) للقزويني ، مع مقدمة وتعليق .

— في سنوات ١٩٢٧ : ١٩٣٠ ، أخرجت له مطبعة هايدلبرج ، كتاب (المخارج في الحيل لمحمد بن الحسن الشيباني) مع مقدمة وتعليق .

— في سنوات ١٩٢٨ : ١٩٣١ ، أخرجت له مطبعة برلين (الجامع الكبير) في الشروط .

— في سنة ١٩٣١ ، نشر كتاب (دين الإسلام) ط برلين .

— « » ١٩٣٣ ، نشرت له مطبعة ليدن ، كتاب الجهاد والجزية وأحكام الحاربين ، من (كتاب اختلاف الفقهاء) لابن جرير الطبري .

ثم نشر بعد ذلك كتاباً عن الأحكام في الدور الأول للفقه الإسلامي (١٩٥٠) و خلاصة تاريخ الفقه (باريس ١٩٥٣) ونشأة الفقه في الإسلام (أكسفورد ١٩٥٣) .

و « شاخت » هو الذي كتب لدائرة المعارف الإسلامية ، أكثر المواد المتعلقة بالفقه ورجاله ، ومواد الأصول ، وعلم الكلام .

وفي مكتبة الاستشراق الروسي ، نجد لكراشكوفسكي عميد مستعربي الروس ، نحو أربعمئة وخمسين كتاباً وبحثاً في التراث العربي . وقد نشر المجمع العلمي للاتحاد السوفييتي ، ستة مجلدات لأعمال هذا المستشرق الكبير ، منها كتابه القيم في تاريخ الأدب الجغرافي العربي .

* * *

ثم لا أمضى في تتبع هذا الجهد السخي الذي أعترف بقصوري عن استيعابه ، ولعل فيما عرضت منه ما يكفي لإنصافهم ، والإلمام بما بذلوا في جمع تراثنا وصيانته ونشره ودرسه .

هنا يعرض سؤال :

— ما الذي أغرى الغرب الحديث بمتابعة البحث في تراثنا ، بعد أن أدى غرضه

في خدمة عصر الإحياء ، وصار للغرب الدور القيادي للحضارة المادية والعلمية ؟
هل يفتش فيه عن شيء يُحتمل أن يكون فاتة فيما عرف من تراثنا ؟
أو هل يرى فيه ميراثاً إنسانياً من حقه أن يسان وينشر ، ما دام أهله قد
نبذوه وأضاعوه ؟

قد يبدو الأمر كذلك مع قلة من علماء الاستشراق المخلصين الأمناء .
لكن الواقع التاريخي يؤكد أن حركة الاستشراق جملةً ، وُجّهت في مراحلها
الأولى إلى خدمة غرض آخر ، لا يعنيه تراث الشرق إلا بقدر ما يكشف عن
عقليات شعوبه وأمزجتهم وأسرار ذاتهم ومواقع القوة والضعف فيهم ، توطئة
لحملات التبشير وموجات الاستعمار التي تدفقت على شرقنا الآسيوي الإفريقي ،
من القرن الثامن عشر .

فحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق كيف نشأت ، يلقانا جوابه الصريح
بأنها قامت أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية وخضعت لإشراف مباشر
من كبار أجبّارها .

وتقديراً لدقة هذا الجانب وحرجه ، أدع الكلمة للمؤرخ اللبناني المسيحي
« الفيكونت فيليب دي طرازي » فيقول :

« راح البابوات في القرنين الثاني عشر والرابع عشر ، يُغرون قُصّادهم ورسلمهم
ورهبانهم بتعلم العربية ترويحاً لخطتهم الكاثوليكية . وقرر مجمع فيينا المنعقد
في سنة ١٣١١م ، برياسة « البابا إكليميس الخامس » أن تؤسس دروس عربية وعبرية
وسريانية في رومة على نفقة الخبر الأعظم ، وفي باريس على نفقة الملك ، وفي
أكسفورد وبولون على نفقة الرهبان ، وذلك لكي يكون منهم المبشرون والوعاظ
الذين يطوفون بالبلاد الشرقية . وكان سفراء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا بمراقبة
دروس العربية (١) .

ويعدون من المآثر الباقية للبابا « لاون العاشر » أنه « احتفل سنة ١٥١٤ م
بافتتاح أول مطبعة عربية في مدينة فانو على ساحل الإدراتييك (٢) .

(١) دي طرازي : خزائن الكتب العربية ٥٧٧/٢ .

(٢) دي طرازي : « - ٥٧٨/٢ » .

كما يذكرون من مآثر البابوات بيوس الرابع : (١٥٦٥ م) وبولس الخامس (١٦٢١ م) وأوريانس الثامن (١٦٤٤ م) وإقليميس الحادى عشر (١٧٢١ م) مساعيمهم الجادة فى إحراز المخطوطات العربية « فقد وجه إقليميس الحادى عشر إلى الشرق سنة ١٧٠٧ عالماً لبنانياً اسمه إلياس السمعانى لابتياح ما يعثر عليه من المخطوطات فى لبنان وسورية وفلسطين ومصر . وفى عام ١٧١٥ كلف لبنانياً آخر اسمه يوسف شمعون السمعانى أن يرتحل إلى المشرق للغرض نفسه . كما وجه سنة ١٧١٩ إلى الموصل كاهناً مارونياً قبرصى الأصل ، اسمه أندراوس إسكندر ، لإحضار ما يستطيع من مخطوطات » (١) .

وجد خلفاؤه على أثره ، فكانت بعثاتهم ورسلمهم تطوف بالشرق الإسلامى ، من مصر والشام والعراق إلى ما وراء النهر والهند ، يشترون أندر المخطوطات . وتبارى أتباعهم من رجال الإكليروس الشرق لإتحاف مكتبة الفاتيكان بنفائس الذخائر العربية . وبلغ ما زود به الكردينال فريدريك رئيس أساقفة ميلانو . مكتبة الأمبروزيانا من ذخائر العرب ألوفاً عدة . ثم جاء الأب واتى فأضاف إلى ثروتها من هذه الذخائر ستة آلاف مخطوط (٢) .

والمستشرق « كياتانى » الذى أشرت آنفاً إلى ما أنفق من جهد ومال فى تأريخ حركة الفتح الإسلامى : سجل فى مقدمة « حوليات الإسلام » اعترافاً صريحاً بأنه إنما يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية « كاتاستروفيكاً إسلاميكاً » التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض ، ما يزالون حتى اليوم يدينون برسالة محمد ويؤمنون به نبياً ورسولاً !

ويلاحظ هنا أن التوجيه التبشيرى للاستشراق ؛ قد سائر حركة جمع التراث فى دورها الأول الذى قصد به إلى الانتفاع بما سبق إليه الشرق الإسلامى من علوم وثقافات . وليس من العسير علينا أن نفهم هذه المسيرة ؛ إذا أدركنا أن تراثنا حين عبر إلى أوروبا ، كانت البيئات العلمية تأخذ عنه علومنا ومعارفنا . على حين التمس الكنيسة فيه ما تسخره لخدمة أغراضها الدينية .

• • •

(١) دى طرازى : خزائن الكتب - ٥٨٠/٢٠ .

(٢) دى طرازى : خزائن الكتب - ٥٨٤/٢ .

ولم يعدُ الأستاذ الباحث « فيليب دي طرازي » الحق التاريخي . حين قال في الفصل التاسع من كتابه الخزائن :

« إن الاستشراق قام في بداية أمره لغاية دينية محضة . ثم توسع علماء الاستشراق فجعلوه سياسياً ولغويًا معاً » .

وقد مضى الكلام عن التوجيه الديني للاستشراق .

فلنتقف عند قوله « سياسياً » لنرى نصيب السياسة في توجيه حركة الاستشراق .

* * *

نشطت حركة الاستشراق قبيل الغزو الاستعماري ، وسابرته حيناً من الدهر ، تقدم إليه ما هدى إليه تراث الشرق من فهم عقليته ومزاجه . وتعد له الرسل والدعاة الذين انبثوا في أنحاءه واختلطوا بأهله : تجاراً ومبشرين ودعاة وجنوداً استعمار . .

ولاحظوا معي أن أول جماعة أُسِّست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسياً ، قامت في فرنسا سنة ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات . ولم يكن حرص ملوك فرنسا بأقل من حرص أحرار الكنيسة على إيفاد بعثات إلى الأمصار العربية لجلب ذخائر تراثها . وكان سفراؤهم يُندبون رسمياً لهذا العمل السياسي . وفي كتاب (خزائن الكتب العربية : ٢ / ٥٨٧) أن في مكتبة دير الشير ببلنان . مخطوطة من كتاب (وفيات الأعيان لابن خلكان) على هامشها حاشية أثبتتها « أبو النصر الخازن » الذي كان قنصلاً لفرنسا في بيروت على عهد الملك لويس الرابع عشر . وتنص الحاشية على أنه « في سنة ١٦٧١ م أرسل على الجنباب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنسية ابيضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هؤلاء المبعوثين » .

وتضيف الحاشية ، أن مستشاراً للملك توجه إلى قبرص ، فالشام ، فمصر ، فاسلامبول ، فيغداد ، وظفر من كل بلد منها بكثير من المخطوطات .

* * *

والبحث العلمي التاريخي متى انحرف عن غايته الأصلية من خدمة العلم

وكسب المعرفة والبحث عن الحقيقة ، أعوزته النزاهة التي هي جوهر البحث العلمي ، والحرية التي هي مناط سلامته . وعلماء الاستشراق بشر مثلنا ، يتعصبون لدينهم وقومياتهم مثلما نتعصب لديننا وقوميتنا . وما ينبغي أن نلومهم على هذا التعصب أو نغضب لعجزهم عن التجرد من أهوائهم ، وإنما نحن هنا بصدد قضية علمية وتاريخية ، تلزمننا بأن نكون على وعى بما لابسَ عمل أكثر المستشرقين من انحراف لم يكن منه بد ، بحكم ما استهدف الاستشراق في نشأته الأولى من خدمة الكنيسة والاستعمار .

وليس عليهم بأس في أن يقولوا فينا ما يقولون ، متى كانت أقوالهم معبرة عن رأى لهم ، أو صدى لاستهوائهم بما راج في بيناتهم من أقاويل عنا . لكن البأس كل البأس ، أن يحمل « البحث العلمي » وزر هذه الأهواء ، فتخرج بحوث لهم مشحونة بأباطيل يزعمون أنها مما هدى إليه استقراؤهم لتراثنا ، ويفرضون لها حرمة علمية ، حين يسوقون أدلة وشواهد من نصوص في التراث ، انحرف بها الهوى والتعصب ، فضلوا ضلالاً بعيداً .

وقد حدثتكم من قبل ، عما ندين لهم به من إنقاذهم لتراثنا المضيع ، ودأبهم على جمعه وتحقيقه ، وأشارت إلى دقة منهجهم في النشر بما يكفي لإنصافهم . وبقى أن ألفت إلى ما يلقانا في دراسات كثير منهم ، من التواء الأساليب في توجيه العبارات ، واضطراب مناهجهم في سوق الأخبار ، واعتسافهم في تأويل النصوص لتعطى نتائج خطيرة محرفة ، تمس عقيدتنا وتشوه تاريخنا ، وتؤيد مزاعم بعينها مما يروجه أعداء الإسلام والعرب والشرق .

يكفي مثلاً أن تقرأوا ما كتب « يوسف شاخت » في مادة « أصول ، أو تفسير » أو غيرهما من مواد دائرة المعارف الإسلامية . وتعليق أستاذنا « أمين الخولي » عليها في الترجمة العربية ، لثروا إلى أي حد بلغ بشاخت جموح التعصب وشطط التأويل واعتساف الملحظ وزور الدلالات .

وشاخت كان أستاذاً في جامعتنا ، يدوس لنا فقه اللغة ويرتدى زى العلماء . وله في دوائر الاستشراق منزلة عالية ، أهّلته لأن يتنقل بين الجامعات الغربية محاضراً عن الإسلام ، ثم اختير للإشراف على طبعة جديدة من دائرة المعارف الإسلامية ، تخرجها مطبعة ليدن في هولاندا .

وما من ريب في أن شاخت وأمثاله ، ينحرفون عن قصد وعمد ، استجابة لتعصبهم ، ويخضعون في دراساتهم للهوى الجامح .
ولكن منهم كذلك من يتجرد للبحث التزيه ، ثم يخونه الحق أثراً لما يسيطر على ذهنه من أفكار سابقة عن عقيدتنا وتاريخنا ، يعز عليه أن يتخلص من احتكامها في توجيه النصوص .

وهذا ما لم ينج منه ، مع الأسف ؛ المستشرق الجليل « كراتشكوفسكى » في كتابه القيم ” تاريخ الأدب الجغرافي العربي “ إذ سيطرت فكرته عن نبي الإسلام ، على بحثه في القرآن والحديث ، واحتكمت في توجيه النصوص .

* * *

ونظر في الميدان الأدبي – حيث مجال التعصب فيه أقل – فنرى المستشرقين قد صح لهم علم العربية ثم أعوزهم ذوقها . فتعثر نصوصه في أيديهم لقصورهم عن ملح دلالات ألفاظها وفقه أسرارها في البيان وطرق مجازها وأساليب تعبيرها . ولا مجال لأن أطيل هنا بعرض نماذج من أخطأهم في فهم نصوص تراثنا وتعثرهم في توجيه سياقها ، فحسبي أن أحيلكم على ما سبق لي أن عرضته من ذلك بمزيد تفصيل وبيان ، في فهم المستشرق الإنجليزي نيكلسون^(١) والمستشرق الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس^(٢) لنص رسالة الغفران . مع ما تقرءون من تعليقي على كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) لكراتشكوفسكى^(٣) .

* * *

وآن لنا بعد هذه الرحلة مع تراثنا من قديمه البعيد ، أن نطال على سير الزمن به في العصر الحديث .

(١) انظر نسخة نيكلسون بين نسخ الغفران ، في مقدمة النص الذي حققناه من (رسالة الغفران)

ط الذخائر .

(٢) الغفران : دراسة نقدية – ص ٣٢٤ وما بعدها ط ٣ دار المعارف بالقاهرة .

(٣) في المجلد الثاني ، من الترجمة العربية للكتاب ، نشر جامعة الدول العربية .

تراثنا من فجر اليقظة
إلى العصر الحاضر

- بعد ليل طويل
- في دوامة العصر